

البطل في الأدب العربي المعاصر الشخصية البطولية والضحية

فقط وهما الشخصية البطولية - الضحية كما يمثلها الأدب الطبيعي اليوم لاهيتها في هذه الفترة المعاصرة . واعترف بانني لن اتمكن ان اتيها حقها من البحث في زمن محدد . وقد حال تخصيصي لهذين النوعين دون البحث في بعض التجارب الادبية المهمة التي عالجت انواعا اخرى من الابطال ، كالبطل اتلامنتي او الرفض ، والبطل النموذجي التاريخي .

نظرة عامة في معالجة البطل في الأدب العربي المعاصر :

ان معالجة البطل في هذا الادب لا تعكس فقط احتياجات القارئ، بل رؤيا الكاتب الابداعي نفسه وموقفه الشخصي من العالم . وقد وجدت ، في دراستي للأدب المعاصر ، ان معالجة البطل في انشعر عندنا تختلف قليلا عن معالجته في القصة والرواية . فعلى سبيل المثال نجد ان الشاعر المعاصر يهتم اكثر من القصة في تصوير الشخصية البطولية . لقد مضى زمن طويل منذ كتب جرجي زيدان رواياته التاريخية الكثيرة التي امتلأت بصور الشخصيات البطولية الفاتكة المتمتعة بمزايا الرجولة الكاملة من شجاعة ونزاهة وشهامة واعمال مجيدة . اما اليوم فان المنحى الواقعي قد غلب على العمل القصصي ، والروائي والقاص عندنا اليوم اصبح يقدم نماذج اخرى للبطل .

لعل احدى السمات العامة « لبطل » في الأدب الطبيعي المعاصر هي انه ليس في محل ارضاء احتياجات المجتمع الارستقراطي او الطبقة الغنية المريحة في العالم العربي . العوامل القاندية والتاريخية التي توجه اختيار البطل هي تلك التي تؤكد كرامة الانسان ومسؤولياته وحقه في اختيار مصيره . تنبع هذه العوامل ، على الصعيد النظري من مفهوم الحرية والعدالة والتحرر والتقدم ، وحيانا من الاخلاقية القاندية في العالم العربي ونف باسمرار ضد الاستبداد الداخلي والعدوان الخارجي والفساد والاستغلال وحيانا ضد الطبقة . وعلى الصعيد التطبيقي يبدو البطل في عدد كبير من الاعمال الادبية في حالة صراع مستمر يحاول ان يحيي القيم الجديدة وان يهزم القوى الشريرة في المجتمع التي تناهض تلك القيم وتحاول ان تدمر تقدم الانسان . ويبدو البطل وحيانا انسانا مضطهدا عاجزا عن التغلب على ظروفه السيئة بسبب عدم وعيه وجهله لحقوقه ومعنى حياته . وقد يكون البطل الرئيسي في العمل الادبي بطلا سلبيا او ما نسميه بنقيض البطل ، وفي هذه الحال نراه ينكمس عن القيم الجديدة او عن المثل العليا في معناها الانساني الشامل .

لماذا نتحدث عن الادب العربي عامة ولا تكفي بالتخصيص فتحدث عن الادب المحلي في كل دولة عربية . انه لصحيح اننا لا نتحدث في نتحدث عن مواضيع خاصة ، كالرواية المصرية والشعر العراقي وادب المقاومة الفلسطيني والشعر القومي في سوريا وادب النهضة النسائية في لبنان ، غير ان كل هذه فروع من موضوع واسع شامل هو الادب العربي الموحد .

نعرف ان العالم العربي منقسم الى دول مستقلة سياسيا ذات أنظمة مختلفة ، ونعرف كل ذلك الحديث اطويل عن الخلافات السياسية الكثيرة ، وعن التقلبات المستمرة في الموقف والعلاقات بين بلد وآخر ، ونعرف ان هناك تباينا كبيرا في الانظمة الاقتصادية ومستوى المعيشة والمناهج التربوية والموقف من الحرية والحدانة ، ومع كل هذا فان هناك نوعا من الترابط في العالم العربي اكثر من مجرد وحدة اللغة والتراث المشترك ، رابطة نراها ونلمسها في مشاعر الجموع العربية في كل مكان وفي احلامها ومطامحها .

بالنسبة الى الادب يمكننا القول بان الادب العربي الطبيعي تعبير عام عن رؤيا الانسان المعاصر في العالم العربي ، موحد اجمالا وفي الاتجاهات التي يعكسها ، في نوع الغضب والرفض والاحتجاج اندي نلتزمه ، وفي القضايا العامة التي يتناولها ، هذه الوحدة في الادب المعاصر تتيح مجالا واسما امام الباحث لاختيار موضوع عام يندرج على هذا الادب . بالمقارنة نجد ان الادب المكتوب باللغة الانجليزية يفتر الى هذا النوع من الوحدة . فالادب الاميركي المعاصر يختلف في اهدافه واهتماماته ورؤياه واتجاهاته ، وحتى في قاموسه اللغوي من الادب الانجليزي المعاصر ، بينما تتحد الرؤيا العامة في ادبنا المعاصر ، الطبيعي منه ، وهي رؤيا كثيرا ما تعكس الانسان في حائسة صراع مستمر اذ يحاول ان يجد هويته في العالم الحديث وهو يحارب على جبهتي الظلم الاجتماعي والفقر السياسي .

الموضوع الذي اقامت عليه هذه العراسة هو موضوع « البطل » في الادب العربي المعاصر . وهو موضوع يصلح بكتاب مطول بالنسبة الى تشعبه وتلونه . انواع كثيرة من الابطال تدرج تحت هذا الموضوع العام منها البطل العربي والبطل الثوري والبطل الماساوي والبطل المتمرد والبطل التاريخي النموذجي والبطل اللامنتمي والبطل الضحية ونقيض البطل .. الخ . بالنسبة لاتساع الموضوع خصصت لهذا البحث دراسة نوعين

ويختلف عالم البطل عندنا بالطبع من عمل أدبي السى آخر حسب الدور الذي يلعبه البطل . غير ان هذا العالم في الأدب الطليعي كثيرا ما يكون خاصاً لرباح الغيبر والقلق وهو مليء بصور الأفراد الساعين لخلق تركيب جديد للعالم الذي يعيشون فيه وبصور الأتراء الذين يعاكسونهم .. ان نموذج البناء والهدم مستمر . غير ان نموذج الهدم في هذا الأدب لا يجيء سلبيا دائما فهو يتضمن في بعض الأعمال الأدبية ، تهديم العالم الفاسد الذي قاد العرب المعاصرين وما زال يقودهم الى التكبث .

الشخصية البطولية :

كان مدح صفات الرجال البطولية من اهم مواضع الشعر الجاهلي - فقد مجد هذا الشعر صفات الذين تمتعوا بهزايا القوة والنجدة والشهامة وفاقوا بها سواهم من الناس ، وبقيت البطولة والغروسية جزرا من التراث الشعري مدرجة في قواعد المديح والرثاء في تهود الشعر لتتصف بالاضافة الى سواها كفضائل الحكمة والمعرفة والعادلة نموذج الرجل العظيم .

واكتسى النموذج البطولي روحا ملحمية في القصص الشعبي العربي الذي اشتمل على معالم البطولة في الملحمة الاوروبية ، في الوقت نفسه الذي راح فيه الشعر العربي ينحدر عن المستوى البطولي الاصيل الى تفاهات شعر التزييق والتقليد في عصور التجميد ، غير ان تيقظ العرب في اواخر القرن التاسع عشر الى حقيقة : لاحتلال الاجنبي لبلادهم ونمو الروح القومية مهذا لبروز الشخصية البطولية من جديد في الادب . وقد تبلورت معالم هذه الشخصية واكتسبت صفات اشرحدانة وتلاؤما مع العصر باشتداد الكفاح القومي ضد الاستعمار ، وظهرت بقوة شخصية البطل المحرر والبطل الفدائي ، وتحدث الشعراء عن الابطال بما يقارب الاجلال والخشوع . كتب ابراهيم طوفان (ت ١٩٤١) عددا من ابداع قصائده عن البطل القومي المنقذ وعن الفدائي الشهيد ، كان بطله بلا اسم ولا وجه يمتلك صفات تكاد تكون خارسة فهو البطل الذي حملته جبهته طرفا من رسالته والذي اربع بجراته الموت نفسه . ومجد زميل طوفان عبدالرحيم محمود (ت ١٩٤٨) فكرة الكفاح كفعل مستمر ما دم العدو قائما متحكما ، كما مجد الشهداء الذين يواجهون استشهادهم بالقبول والرضى ، ويفدون وطنهم بدمائهم ، مؤكدا بان راية الوطن لا يمكن ان ترتفع الا على جماجم الشهداء .

ولعله تكرر لامر معروف ان نتحدث عن تأثير النكبة نكلنا نعرف ارد فعل العرب لها وكيف استجابوا بسلسلة من الثورات والانقلابات جعلت من المنطقة مسرحا للتحرير السياسي المستمر ، وقبل ان يستقر العرب على وضع حدثت النكسة وهزت اسس المجتمع العربي وعمقت في العرب الشعور بالذنب والخل . وفي الوقت نفسه غيرت اتجاه جزء كبير من الشعر ، ففي البدء دارت الامة على نفسها رعبا وكرها للذات ، وجاءت قصائد التائب والتقرع شافية لاحاسيس الخجل الذي احدثته النكسة - كان سهلا على ادونيس ان يقول « هل اتى نهر بلا مصب » ؟ وان يصيح قباني « انعي لكم يا اصدقاءني اللغة القديمة » ، ومع ان سعدي يوسف ضمن قصيدته « تاملات عند اسوار عكا » رؤيا ايجابية للمستقبل الا انها كانت في الوقت نفسه مفعمة بمعاني رفض الذات وكرهها .

غير ان بروز المقاومة الفلسطينية واشتدادها في نهاية الستينات خفف من مشاعر كره الذات ومهد لرؤيا مليئة بالعزم والامان ، وكثر الشعراء من كتابة قصائد تمجد العمل الفدائي وتحمل لهجة التحدي والتصميم وقد حملت هذه القصائد معاني بطولية تتحدى قوى الشر والعدوان ، في هذه الفترة اصبح حب البطولة شوقا ملحا والهداء حالة نفسية ملهوسة .

وكان وصول الشعر الفلسطيني في اسرائيل الى العالم العربي بعد ١٩٦٧ من اهم المؤثرات على الشعراء العرب فقد امتلا شعور

الشعراء الفلسطينيين في اسرائيل بمعاني المقاومة والتحدي ، فقاد الموجة . وبرزت في شعر المقاومة صورة البطل الفدائي المكافح في سبيل الحرية . اذ لم يزل البطل عند طوفان رجلا لا اسم له ولا وجه ، ولا سم له ، لا حمل رسالته الى النهاية . في هذا الشعر لا ترى ، عادة ، ملاح اخرى لحياة البطل الخاصة ، وعندما يسقط شهيد في الميدان فان شهادته نادرا ما تترن بفجيسة اسرته فيه ، بل انه يعامل كأنه ملك تلامه ويجرد من كل صراع شخصي او قبلي او نقص ، فنراه يمضي ثابتا الى تحقيق فعل الكفاح لا يشغله شيء سوى قضية . رجل لا تناقضات فيه ولا تردد ولا ماضي ولا علاقات انسانية ولا اهتمامات شخصية . لا شيء ، الا البطل والقضية والتركيز الكامل على الفعل وحده في لحظة معينة من الزمن .

يصف محمود درويش هذا البطل جيدا في قصيدته الطويلة « هذه صورتها وهذا انتحار العاشق » . فالبطل هنا بلا لون ولا شكل ولا ماضي ، محاصر بالرضاض والموت ، دمه بكرة وحنين . ولكنه يمتد ونظول فدمه حتى يصبح اعلى من المذنة ويصير في لحظة واحدة هو الشجر والرضاض والطايا .

الهداء فعل من افعال الفصيح وهو محض العطاء ولكنه وجه من وجوه انعتف ايضا . ولا شك ان عصرنا عمر غاصب . وقد صور الشعراء ابطالهم وقد تقبلوا العنف كاسلوب محتوم للحياة والوسيلة الوحيدة التي يتغلبون بها على العجز والانكسار ، كتب الشاعر الفلسطيني راشد حسين الذي توفي في نيويورك سنة ١٩٧٦ شعرا كثيرا عن العنف وصور عناء الابطال الذين يحاربون في وجه القمع والعدوان حتى طفلة العربية وليدة القدس قادرة على ادخال الرعب على قلوب الصهيونيين - فعيونهم وآلاتهم نفتشها باحث في صدرها ورحمها وعقلها عن القنابل اذ ان كل من يولد في القدس من اطفال سيصبح يوما قبلة تنفجر في وجه العدو المحتل .

ورغم انهماك هؤلاء الشعراء بمكان وزمان معينين الا ان العمل البطولي الذي يصورونه يكتسب ابعادا شمولية ، فهو ليس نتيجة الشجاعة الفردية قط بل صرخة الفصيح الانسانية ضد العدوان والاندحار . وهي تنبع من غريزة الانسان التي تدفعه الى الخروج للدفاع عن حضارته وثقافته عندما تكونان مهددين . فمهما كان البطل رافضا للفوضى الداخلية والفساد في مجتمعه فانه يخرج ليدافع عن سلامته وكرامته ، ان العمل البطولي ايجابي وببيل دائما - وان كان في الشعر المعاصر نموذج واحد يصور الحب الغيبي المثالي فان هذه الشخصية البطولية التي تتبري باستمرار الموت متجاهلة جاذبية الحياة اليومية ومختارة العقل الذي يرفعها الى اعلى درجات البطولة .

في هذا المعنى يقف البطل في شعرنا اليوم للدفاع عن بلاده وامته وحضارته ، اي ان البطولة في شعرنا المعاصر بطولة دفاعية . فحتى عندما يخرج البطل ليحارب لانه بفضل وعيه القتالدي ، يدرك طبيعة الشر الكامن في العدوان الخارجي ، يظل فعلة البطولي دفاعيا لانه يهدف الى دفع العدوان وايقائه وازالته لا الى نشر عقيدة معينة . وهذا فرق كبير بين البطولة اليوم كما يمثلها شعرنا وبين بطولة المساهمين الاوائل الذين خرجوا لينشروا الدين الجديد على العالم .

البطل - الضحية :

لمت اعني بالبطل - الضحية من راح ضحية الظروف الانسانية العامة كالموت والمرض والزلازل والفيضانات - بل ان ما اعنيه هو الانسان او الجماعة من الناس الذين فرض عليهم العذاب او الموت بفعل الاخرين . قد يعود هذا الى اعتداء مقصود على الصميم الشخصي او الجماعي او الى طغيان التقاليد والمعتقدات والمؤسسات غير ان ظلم التقاليد وهو ظلم اجتماعي دائما ، لا يقع الا عن طريق الاخرين . فلو خرق الفرد قوانين المجتمع شرا ولم يكتشفه احد فانه عادة لا يصبح ضحية .

تصوير البطل - انضحية بهيء المجال أيضا لتصوير فواعدا السداوك الاجتماعي والإعراف الأخلاقية ، ويتيح للمؤلف حرية أكبر في تطوير شخصياته وتلوينها مما يتيح النموذج البطولي . فالبطل البطولي الصافي القلب والروح الذي يعيش حياة مثلى ويموت موتاً مثاليا لا يتعدى في تصوير انتمى المعاصر له تعبيراً واحداً . انه دائماً مالوب يستطيع القارئ ان يتكهن باوصافه مثل الاضلاع على العمل الأدبي، اما الإبطال الآخرون فيختلفون عنه . انه ابطل الثوري مثلا ، قد يدني الوانا من الصراع وقد يرتكب اخطاء ، وقد يغير سلوكه ويتأمل في مصيره . والبطل - الضحية قد يواجه نفيراً فجائياً أو بطيئاً في واقفه . فهو قد يشور وينهار وقد يتعذب ويموت بصمت او قد يعاني عددا كبيرا من ردود الفعل . ثم ان ابطل البطولي يقف عادة الى جانب المجموعة الكبيرة وهي بدورها تسانده . بينما يكثر ان يكون البطل الثوري وحيدا معزولا يكافح ضد عقلية المجموعة الكبيرة . وقد يخرب البطل الضحية فوائين المجتمع مدفوعا الى ذلك بوعيه او باحتياجاته او أهوانه ، ثم يقع ضحية فعله . غير ان هذه الأنواع الثلاثة من الإبطال ليسوا متناقضين بالضرورة . فابطل الثوري قد يقوم بعمل بطولي من الشجاعة والتصميم والصمود والاستعداد لهوت يؤدي به الى معاناة أقسى عذاب ويصبح بذلك ضحية .

ان الادب العربي الطليعي المعاصر حافل بصور الضحايا ويحمل دائما معنى الاحتجاج والنقد الاجتماعي او السياسي . ويتنوع تصوير ضحايا السياسة في هذا الادب ولكنه يعكس عاكاً محاصرا بالاعداء الخارجيين او حائلا بالقمع الداخلي وتحكم الانظمة المختلفة التي تدعي اخلاقية زائفة من ضحايا السياسة الاعداد الكبيرة من البشر الذين قتلوا او تيموا او سجنوا او طردوا من وطنهم . وقد كانت محنة اللاجئين الفلسطينيين موضوعا لعدد من الاعمال الأدبية قبل سنة ١٩٦٧ كقصوة غسان كنفاني « رجال في الشمس » (١٩٦٢) صورت هذه الاقصوة مأساة اربعة من الفلسطينيين اللاجئين الذين فرض عليهم بحكم غربتهم عن وطنهم ان يبحثوا عن رزقهم اليومي ضد جميع تناقضات الحياة العربية . فلكي يدخلوا الى الكويت وهي لهم عندئذ بلاد السمن والعلسل اضطر ثلاثة منهم ان يختبئوا داخل خزان ماء يملكه فلسطيني رابع . كان هذا قد اكتشف ان تهريب الرجال بدر ربعا اوفر بكثير من نقل الماء من البصرة وكان هو نفسه ضحية العدوان سنة ١٩٤٨ الذي فقد فيه رجولته . ان أقسى انواع السخرية في القصة هي ان هذا الرجل اضطر ان يصفي طويلا بلا احتجاج وتذمر الى شرطة الحدود وهم يمازحونه حول مفارقاته الجنسية في الليلة السابقة في البصرة بينما كان الرجال الثلاثة المختبئون في خزان الماء يختنقون تحت شمس الكويت المنهبة . بعد ذلك اذ القى جثثهم خارجا نراه يصبح بهم : « لماذا لم تدقوا على باب الخزان ؟ » القصة مأساة كاملة . فما الذي منع اولئك الفلسطينيين ان يدقوا على بساب الخزان فيعلنون عن وجودهم ويتخلصون من الموت ؟ هل كان هذا يعود الى خوف اصبح غريزيا فيهم من عيون السلطة القاسية التي حاصرتهم اينما ذهبوا منذ يوم هجرتهم الاول ؟ ام انه يعود الى اعتيادهم الصبر الطويل وقد الفوه في بلاد الآخريين ؟ كيف تسنى لهم الثلاثة اذ انحسوا في الخطر المحيق بهم ان يتفقوا ايضا على صمت فادهم الى الموت ؟ وكيف يرضى الانسان ان يختنق دون ان يصرخ في وجه الموت ؟

نوع اخر من الضحايا السياسيين هم ضحايا القمع والرقابة في العالم العربي . ان مشكلة الحرية والارهاب موضوع رئيسي في هذا الادب لانه تجربة رئيسية في الحياة العربية يعالجه عدد من الاعمال الأدبية . في هذا الادب يقف البطل - الضحية وجها لوجه امام سجانها او المخبر عنه - وقد برزت شخصيتها السجان والمخبر كنموذجين مهينين لتقيضي البطل في ادبنا المعاصر .

اصدر نجيب محفوظ رواية الكرنك سنة ١٩٧١ وفيها يصور اوضاعا مختلفة للضحية وقد حاصرتها آلة السلطة واستبدت بمصيرها . فحلمي حمادة تعذبه الشرطة حتى الموت وصديقه يفر بهما العذاب

ببقول التسوية ويقودهما الى الفساد . ان حلمي حمادة مثل ممتاز بلبل الثوري اندي يسكن مسكنا بطوليا ويموت ضحية صموده . فبارغم من انسجن المكرر والتعذيب يستمر في موقفه الثوري وتحديه للسلطة ويرفض ان يبوح بايعة معلومات . مما يقوده الى الموت تحت التعذيب . وتتركز بقية الرواية حول اللااخلاقية الكامنة في السلطة الارهابية : حول ندرتها على افساد الضحايا الذين يقعون في ابدنها فالشخصيتان الاخريان زينب واسماعيل ، ينهاران تحت العذاب ليصبحا مخبرين ، وزينب نفسها تتحول الى بقي ايضا .

وقد دار عدد من الاعمال المسرحية حول مشكلة الحرية والقمع - ويتضمن عدد من المسرحيات محاكمات تفود الى ادانة ابطل الضحية . كما في مسرحية صلاح عبدالصبور « مأساة العلاج » (١٩٦٥) فهي تدور حول حياة انصوفي انشهير وموته في مطلع القرن اتحادي عشر الميلادي اذ امر على عقيدته في العدالة الاجتماعية فقاده اصراره الى اذانة الموت ضلحا . وكتب الشاعر السوري ممدوح عدوان مسرحية نثرية بعنوان « محاكمة الرجل الذي لم يعارب » (١٩٧٢) تدور حول مأساة رجل اتمرت على ادانته فوى الشرقة والاستخبارات والقضاء في زمن عصيب منيت فيه الامة بالانكسار . فالضحية هنا يحاكم لانه لم يشترك في حرب خسرها جيش بلاده قبل ان يتمكن هو من الاشتراك فيها . وقد اختار المؤلف الفزوي المفقولي للشرق الاوسط زمنا لمسرحيته غير انها تحمل دلالات معاصرة شديدة الوضوح . هذه الاعمال كلها تدور حول مشكلة الحرية وصراع الانسان البريء في وجه التعصب والقمع .

وكثيرا ما تفتقر الاوضاع الاجتماعية المتردية التي تحيط بانضحية بالاوضاع السياسية ايضا ، فقصيدنا السياب « الموسم العمياء » و « حفار القبور » تشيران الى ان العذاب الاجتماعي انما هو نتيجة الفساد السياسي . ويتهلئ شعر السياب بصور البشر المكافحين الذين ينصون ضحايا الفقر والظلم ويعانون تجارب لا تحتمل لكي يحصلوا على خبزهم اليومي - فومسه العمياء التي تبسج جسدها لتشتري زيتا يضيء مصباحا لا تراه جنبا الى جنب مع المهاجرين الذين يفرقسون وهم يسعون الى رزقهم . الى جانب البحار الميت وهو ملقى يشرب المياه المالحة على شواطئ الخليج ، انى جانب مئات الافراد الذين يصارعون الحياة ليستوا اقل احتياجاتهم اليومية ، الى جانب الفروي البريء الذي تبغله شرايين المدينة الفاسدة . ان ضحايا المجتمع كثيرون في الادب الطليعي المعاصر عنيت ، ضحايا الاخلاقية الزيفة ، وانفسر ، والطبقية ، والاستغلال ، والبحث في معالجتهم في الادب يستحق كتربا كاملا . وتكاد تهدف جميع الاعمال القصصية الطليعية الى فضسح الاوضاع الاجتماعية (وحيانا السياسية ايضا) في العالم العربي . ففي قصص زكريا تامر تلنم العوامل السياسية والاجتماعية لتكون جوهر المشكلة . فقد استطاع تامر ان يصل بالقصة القصيرة في سوريا الى درجة راقية بتصويره لمواقع العرب والظلم في الحياة العربية المعاصرة . وهو يلجا احيانا الى الرمز وحيانا الى النموذج التاريخي ليصل الى هدفه . فالضحايا في مجموعة « الرعد » (١٩٧٠) الذين يتوقون الى الحياة الطبيعية والحرية يجدون انفسهم باستمرار محرومين من جميع الامكانيات التي قد توصلهم الى مخرج من عذابهم ، فهم محاصرون ، محكوم عليهم بالعذاب والرعب . بالرغم من تغلب القهر في قصص تامر على منازع البطولة في الانسان فان هدف الكاتب انما هو تقويض الاوضاع الفاسدة بتصويرها وهي في اوج تفتتها وتحكمها بالضحية والاستسلام في هذه القصص ليس قبولا ولكنه رفض كامل .

واهتم نجيب محفوظ في رواياته الاخيرة بتصوير عدد من الشخصيات السلبية الفاشلة . وكثيرا ما يجمع بين شخصيتي الضحية ونقيض البطل . يختار محفوظ شخصياته الرئيسية عادة من حياة المدينة (زهرة بطة ميرامار استثناء لهذا) : موظفو حكومة كرمز للبيروقراطية رجال الشرطة كرمز لارهاب السلطان ، بقايا وخدم كرمز للطبقات المستغلة ، لصوص وقتلة كرمز للفساد ، او شخصيات ميسورة الحال من الطبقات الوسطى . ان اغلب شخصيات محفوظ في رواياته الجديدة

يفتقرون الى المواقف البناءة التي يتوقعها الانسان في الاعمال الادبية المكتوبة في زمن الثورات والتغير الاجتماعي والسياسي ، غير ان هذا يعود الى رؤيا الكاتب ورد فعله للحياة المعاصرة ، فانتقاه له هذه الشخصيات تعبير عن حكمه على المجتمع وحرركته واصالة التغير الذي يصيبه او عدم اصالته . وتكثر في روايات محفوظ صور نقيض البطل وقد سقط في شبك من اخطائه هو ان في قبضة المجتمع . ان اللص الذي يتحول الى قاتل في رواية «اللس والكلاب» (١٩٦١) يدورعشا في بورتين من الحب والايامن اذ يحاول ان يهرب من عالم مليء بالخيانة الشخصية : خيانة زوجته وخيانة اصدقائه . والرواية تبرهن على ان المجرم نفسه قد يكون ضحية . وفي انهاية يجد اللص نفسه وحيدا لا يستطيع ان يصل الى المرأة التي تمنحه الحب ولا الى الشيخ الذي يمنحه الرحمة ويقع فريسة كلاب الشرطة التي تمزقه .

يشعر الانسان اذ يقرأ محفوظ في اعماله الاخيرة بانه قد قرأ الكثير لكافكا ويونيسكو وسامويل بيكيت ، فروايتة «ثرثرة على النيل» (١٩٦٦) تتحدث عن الصبث واللاجدوى . انها تصور جماعة ممن رزقوا بعض الثقافة اذ يجتمعون كل ليلة في عوامة على النيل في القاهرة حيث يعد لهم خادم عجوز الحشيش والنساء . انهم كما يصورهم محفوظ ، لا يعدون بارقة امل واحدة في النظام الاجتماعي والسياسي القائم ويلجأون الى الخدر والجنس ليسوا الواقع متحدثين بشيء من اللامبالاة عن الحياة المعاصرة في مناحيها المختلفة . الملل موقف اساسي في هذه الرواية ، والرواية كلها تضخيم للجنة الروحية والعجز - غير اننا نستخلص من الرواية ان العجز نتيجة النظام القائم .

ان موضوع الغربة الروحية من اهم مواضيع الادب الطليعي عندها لا سيما الشعر ، غير ان الابطال المقترين ليسوا دائما ضحايا . اغلبهم لا سيما كما يصورهم الشعر ، اما رافضون او متمردون يحاولون ان يجدوا حلا لفوضى الحياة العربية المعاصرة . ويسمون نحو الاتحاد والنظام . اما في روايات نجيب محفوظ الاخيرة . فان هؤلاء الابطال المقترين ضحايا شديدو الهشاشة خالون من القوة الحقيقية واغلبهم كما يصورهم محفوظ دانو البحث عن هدف لا يجدونه مطلقا . ففي رواية « الطريق » (١٩٦٥) نرى صابر البطل الرئيسي يبحث عشا عن اب لم يره قط وينتهي بارتكاب جريمة قتل مضاعفة . وفي رواية « اللص والكلاب » يبحث سعيد مهران باستمرار عن ملجأ يجد فيه السلامة والامان وفي رواية « الشحاذ » (١٩٦٥) يبحث عمر عن حل لاسئلة كونية لا يجد لها جوابا ويبحث عيسى في رواية « السمان والغريف » (١٩٦٢) عن حل لمشكلته السياسية والحياتية دون ان يتوصل الى نتيجة . دائما نجد نوعا من المسمى الفاشل - فحتى زهرة بطة ميرانار ، القروية البريئة ، لا تشر على بغيثها ابدا ، ونراها في النهاية تترك الفندق حيث كانت تخدم وحيث عرفت الحب والخيبة لتبحث من جديد عن مستقبلها . فبالرغم من ان الرواية تنتهي على وتر ايجابي الا ان المسمى فيها لم يتحقق بعد .

وتصور ثرثرة فوق النيل توقف كل مسمى - فحتى الصحافية التي تجرء ساعية وراء المعلومات ينالها فساد الاخرين في العوامة فتفقد اهتمامها بهدفها الاصلي . لقد توقف الزمن كليا في هذه الرواية - وهو لا يتحرك الا اثر حادثة السيارة الذي ينتهي بموت رجل عابسر بريء - ومع ذلك فان الفعل الذي ينتج عن هذا الحادث يظل فضلا سلبيا اذ ان انيس زكي عندما يقرر ان يذهب الى الشرطة ليخبر عن الحادث لا يفعل ذلك الا انتقاما وتصميما على الهدم : هدم الذات والاخرين .

عندما يتحدث يوسف ادريس مباشرة عن البيئنة المصرية وضحاياها يجيء وصفه اكثر حيوية من وصف محفوظ فكان الكاتب منهمك شخصيا في الحدث . في اقصوصته البديعة « قاع المدينة » يرافق القاريء القاضي عبدالله في رحلته المرهقة عبر احياء القاهرة الفقيرة التي تزداد فقرا ويؤسا باطراد الى ان يصل معه الى قاع المدينة حيث تسكن خادمته الضحية . ويكتشف القاريء الحساس بانه قد سار رحلته في اعماق وعيه الاجتماعي الذي اغتنى معرفة واعية بابعاد اليوس الاجتماعي الذي يعيش فيه فقراء القاهرة والمدن العربية الاخرى . ان قصة ادريس هذه ومعها رواية « الحرام » (١٩٦٥) تتضمنان احتجاجا صارخا على الاوضاع الاجتماعية البائسة في مصر وهي اوضاع تنتظم المجتمع العربي كله تقريبا ، تدور رواية الحرام حول تصرف الافراد الذين لم ينفذ اليهم اي وعي اجتماعي حيث وقد وقعوا في شبكة من الاحداث التي تتخذ بحكم انعدام وعيهم ، مجرى محتوما فهم يواجهونها بمقلية تقبلت الوضع الاجتماعي الموروث ، الجريمة التي ترتكبها عزيزة البطلة وهي قتل وليدها غير الشرعي ، ليست جريمة شخصية بل جريمة اجتماعية اذ انه لا مجال لدرء الفضيحة وما يترتب عنها من قصاص الا بالقتل . ان سخرية القدر في هذه القصة تتركز في ان عزيزة هي اكثر ابطال الرواية تمتعا بالفضيلة والاخلاق الكريمة - فهي ذات شخصية ايجابية تواجه مسؤولياتها بقدرتها ونباله . وقد كان حملها نتيجة للقائها العابر مع شاب قروي ساعدها على استخراج بعض حبات من البطاطا كان زوجها المقعد قد اشتهاها . واصبح فعل المسؤولية فعلا لا مجديا ضمن الاطار الاجتماعي الذي تعيش فيه البطلة - فوقعت الضحية للفقر والطبقة والمحاظير الاجتماعية التي لا ترحم .

الضحايا النساء في الرواية العربية المعاصرة لسن عادة واعيات للشركامن في المحاظير المفروضة على المرأة في المجتمع العربي التقليدي ، بل انهن يتقبلن هذه المحاظير كقانون طبيعي للحياة . ويكثر ان يكون خطأ واحدا تقع فيه المرأة سببا في السقوط النهائي او الموت . روايات نجيب محفوظ مليئة بالنساء الضحايا اللواتي يتحولن الى بفايا نتيجة لتجربة جنسية واحدة تقع نتيجة الهوى او الاغتصاب ، ونجد المرأة عادة في وضع تقبل وایمان بالمحايير الاجتماعية ، فعزيزة بطلة الحرام تناضل بما يشبه البطولة نتيجة لايمانها بقانون المحاظير الاجتماعية واحترامها له .

اما عندما نجد البطلة في الرواية الطليعية المعاصرة واعية لنظم القانون الاجتماعي للمرأة فاتها عادة تكون بطلة متردة رافضة ، لا ضحية ، كما نجد في اعمال ليلي بعلبكي . غير ان الوعي قد يعود احيانا الى الماساة . فبطلة الطيب صالح في « موسم الهجرة الى الشمال » توصلت عن طريق زوجها مصطفى سعيد الى الوعي بكرامتها الانسانية ولكن وعيها هذا قادها في النهاية الى الفجيرة . الى قتل زوجها الجديد الذي فرضته عليها اسرتها والانتحار . فيدور الفصل الاخير في الرواية حول الوعي الاجتماعي الذي يواجه به الابطال مجتمعا سكونيا غارقا في التقاليد يمثله الجو وعصبة الاصدقاء حوله يدور حول العقل الذي عرف معاني اخرى للحياة اذ يصطدم بالعقل المتشبه بالتقاليد والاعراف والمحاظير الموروثة .

كانت هذه دراسة موجزة لنوعين من الابطال في الادب العربي الطليعي المعاصر ولعلهما حتى الان اكثر الابطال ورودا في الادب عندهنا . الا ان المستقبل القريب قد يرى تطورا لثمودج البطل الثوري ونضجا اكبر في تقييم الاوضاع العامة ومواجهتها غير ان النوعين السابقين سيحتفظان باهميتهما ما دامت اوضاعنا الاجتماعية والسياسية المعاصرة في صراع حاد بين قوى الثورة الحديثة وقوى التقهقر الرجعي في العالم العربي .